الاستفهام عند الحارث المحاسبي

في تفسيره للقرآن الكريم

م.م مهدي شكور محمد – كلية التربية للعوم الإنسانية

قسم اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

المـقـدمـة

الحمد لله ربِّ العالمين حمداً كثيراً ، والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين وخاتم النبيين محمد بن عبد الله الصّادق الأمين وعلى آله الطيبين وصحبه المنتجبين ٠

وبعد ...

فهذا البحث (الاستفهام عند الحارث المحاسبي في تفسيره للقرآن الكريم) ، ودراستي هذه نابعة من إيماني بأهمية الموضوع ، من عدّة جوانب ، أهمها ، عدم وجود دراسة مستقلة عن الاستفهام عند الحارث المحاسبي في تفسيره للقرآن الكريم ، والتعبير بأسلوب الاستفهام يأتي حياً موحياً يدخل القلوب ، ويعطي الكلام حيوية وقدرة على استيعاب المعاني ، ويحقق مدلولها .

واتّبعت في البحث على ذكر لقبه فقط ، اختصاراً ، واقتصرت على ذكر سنة وفاته ، لشهرته ، وجاء البحث بتمهيد ودراسة للمعاني والأغراض التي استعملها المحاسبي في التعبير بالاستفهام . وتناولت في التمهيد ، الاستفهام لغةً واصطلاحاً ، والاستفهام عند المحاسبي ، وأمّا المعاني والأغراض ، فقد تضمّنت دراسة (الإرشاد والنصح ، والتنبيه ، والتّمني ، واللوم ، والتقرير ، والنّفي ، والتعجُّب ، والنّفي مع التعجُّب ، والإنكار التوبيخي والاحتقار ، والتهويل ، والتشويق) ، ثم خاتمة البحث ، التي ضمَّت أهم النتائج التي توصَّلت إليها ، ثم ألحقتها بقائمة الهوامش وثبتٍ بالمصادر والمراجع والدوريات .

أمّا مصادر البحث ومراجعه ، فقد درست واستفدت من مصادر ومراجع عديدة أهمها ، كتب للمحاسبي ، منها (آداب النفوس ويليه التوهُّم ، والرعاية لحقوق الله والعقل وفهم القرآن ،...) .

وأولاً وآخراً أحمدُ الله العليّ القدير على تمكني من إتمام هذا البحث ، وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم .

التمهيد

الاستفهام لغةً [١] : وهو ، من : ((فَهمتُ الشيءَ : أي عَقلتهُ وعَرَفتهُ)) ، وهو عِلْمُ الشيءَ ،[٢]و ((فَهِمَه فَهْماً وفَهَماً وفهامةً : عَلِمَه)) [٣] ، ((واسْتفهَمهُ : سأله أن يُفَهِّمَهُ)) [٤] ، أو يُخبرَه عنه [٥] ، ((والاستفهام لا يكون إلاّ لما يجهله المستفهم ، أو يشكّ فيه)) [٦]

الاستفهام في الاصطلاح : وهو : ((طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل)) ، وأدواته[٧] الموضوعة له ، الهمزة ، وهل ، وما ، ومَن ، وأيَّ ، وكم ، وكيف ، وأين ، وأنَّى ، ومتى وأيّان . [٨]

الاستفهام عند المحاسبي : إنَّ أسلوب الاستفهام والذي يعدّ من أغزر قوالب المعنى وألطفها يُستعمل للمعنى الموضوع له حيناً ، ولغيره حيناً آخر ، وهو يحظى بخصائص موضوعية ، كما يتمتع بخصائص دلالية وأسلوبية ، وإيحاءاتها ثرّة متنوعة ، تتنوَّع بتنوّع أدواتها وسياقاتها .

وقد تفنن المحاسبي في التعبير بالاستفهام في تفسيره للقرآن الكريم ، ووجدنا أنها كثيراً ما خرجت عن المعاني الأصلية ، إلى أغراض بلاغية أخرى جديرة بدراسة علمية ، قامت بتفصيلها هذه الدراسة .

أولاً / الإرشاد والنصح :

عبَّر المحاسبي (ت ٢٤٣هـ) بالاستفهام ، عن معان مجازية ، تخرج إليها ، منها الإرشاد [٩]والنصح ، مستعملاً أداة العرض (ألا) [١٠]، مع فعل الأمر ، بهدف تحقيق التوعية للمريدين ، ممّا ظهر ، في قوله : ((يجيء يوم القيامة قوم يطلبون صفات لهم عملوها ، فيقال لهم : ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾[١١]أَلا فكونوا مقتصدين في أحوالكم من غير إقتار إسراف))[١٢] ، ومثله أيضاً ، قوله : ((أَلا فراقبوا الله إخواني ...)) ، التعبير بـ (ألا) ، و (فكونوا) ولا (فراقبوا)[١٣] ، دلالة على حرص المحاسبي في استجابة المريدين ، قبول النصيحة ، بدوام طاعته سبحانه وتعالى في السّر والعلانية[١٤]

ثانياً / التنبيه :

واستعمل المحاسبي الأداة (ألا) ، والفعل المضارع (ترى) ؛ لأداء معنى التنبيه ، ((وهو من أقسام الأمر))[١٥]، ممّا نقرؤه ، في تفسيره ، بقوله : ((ألا ترى أنّ الله وعدك أن يرزقك وغيب رزقك عنك بالقضاء ، وله وقت ينزل فيه ؟ فلوا احتلْتَ بكل حيلة أن يأتيك قبل وقته لم تقدر على ذلك ، حتى ينزل في وقته [١٦]. أما سمعت الله عزَّ وجلّ يقول : ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ۝٢٣﴾[١٧] نلحظ أنَّ المحاسبي ، استعمل حرف التنبيه (ألا) ؛ لقصد العناية بالكلام [١٨] ، واستعمل أيضاً ، الأداة (أما) ؛ ليؤكد أنَّ الرزق من الله سبحانه وتعالى أمرٌ محقق الوقوع والحصول قطعاً . [١٩]واستعمل المحاسبي ، (الواو) العاطفة والصيغة عينها وبصورة الغائب ؛ لتعظيم شأن الله تعالى ، في قوله : ((أَولا تراه يقول عزَّ وجلّ : ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢٠] ، يعني بيَّنا لهم ما [٢١] . فإنما خاطب الله العباد من قِبَل ألبابهم ، واحتجَّ عليهم بما ركّب فيهم من عقولهم)) ، والمعنى انظر، وتدبَّر آياته سبحانه وتعالى . [٢٢]

وعبَّر المحاسبي بالأداة نفسها ، والفعل المضارع (تسمعه) ، في نفس المعنى ، ممّا ظهر في تفسيره ، بقوله : ((أَلا تسمعه يقول : ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [٢٣]

لا يعني أنهم كانوا صماً ولكن لا يفقهون ما يسمعون بآذانهم . ألا تسمعه يقول : ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [٢٤]، فأثبتَ النظر [٢٥].

يقول : لا يعقلون دلائل الله عزَّ وجلّ في نبوته عليه السلام)) ، أشار المحاسبي ، إلى حضور [٢٦]القلب عند الإصغاء والاستماع للقرآن الكريم ، وإدراك فهمه ، والتدبُّر والتفكر ، للقيام بطاعته وعبادته سبحانه وتعالى ، وقد وردت هذه الصيغة كذلك في كتاب آخر له . [٢٧]

ثالثاً / التّمني :

واستعمل المحاسبي أداة العرض (أَوَلا) ، لتضمّنها معنى التمني نصاً ، وذلك ممّا نقرؤه في تفسيره [٢٨]، بقوله : ((.. فإنَّ في هذا القرآن الذي أنزل علينا تبيان كل شيء ، وعلم كل شيء . فعليك بتدبره ، وتأمّله في الليل والنهار ، وأعمل نفسك في فهمه ، والعمل به ، أولا تستمع إلى قوله تعالى ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [٢٩](أَوَلا) في هذا النص أفادت معنى (ليتك) . ومنه أيضاً ، قوله : ((فلا ترغبْ عن الله بجهلك ، فتخضع لمن دونه عند تخويف الشيطان ، فيستولي عليك عند ذلك أولا تستمع إلى قوله [٣٠] : ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [٣١] ، فما يضرك من مواعيد الشيطان مع ضمان الرحمن ؟)) [٣٢] ، نلحظ أنَّ المحاسبي ، [٣٣] (استعمل (لا) الناهية مع الفعل المضارع ، وحقّق الموازنة ، [٣٤] في (ترغب ، وتخضع) والطباق ، بين اسمين ، في (الشيطان ، والرحمن) ، مما أعطى قوة للمعنى ، وعمقاً له . [٣٥]

رابعاً / اللّوم :

واستعمل المحاسبي الأداة (أما) ، وهي مثل (ألا) ، في دلالتها ، والفعل الماضي (سمعته) لتأدية معنى اللوم ، ما نقرؤه ، في تفسيره ، بقوله : ((فمن سكن قلبه إلى أنه ليس نعمة في السماء والأرض إلاَّ وهي لله ، استراح قلبه من عذاب الحرص [٣٦] . أما سمعته يقول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾ [٣٧]

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [٣٨]

فإذا ألزمت الثقة قلبك ، فإنما أنت ناظر إلى الله ، لأنَّ الملك لله دون خلقه ، وبقدر تركك الثقة [٣٩]يعظم حرصك على الدنيا...)) ، عبَّر المحاسبي بصيغة الماضي ، والتي أفادت التحقيق والثبوت ، وكذلك استعماله أداة الشرط (مَن) ، مع فعل الشرط الماضي سكنَ) ، وجوابه (استراح) الفعل الماضي أيضاً ، للدلالة على القطع وتحقّق وقوع اطمئنان القلب بذكر الله سبحانه ، الماضي يحمل في بنية الشرط القطع والتثبيت ، [٤٠]وقد وردت هذه الصيغة كثيراً في كتب المحاسبي فالفعل [٤١] .

خامساً / التقرير :

وأدى المحاسبي بالاستفهام ، معنى التقرير ، والهمزة ، هي الأداة الخاصة بذلك ،[٤٢] [٤٣]ويؤدّيها مع أداة نفي الماضي (لم) ، ممّا ظهر ، في تفسيره ، بقوله : ((ألم تسمعه عزَّ وجلّ يقول : [٤٤] ﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ [٤٥]

. قال : أُذُنٌ عَقَلَتْ عن الله تعالى . يعني عقَلَ عن الله ما سَمِعَتْ أذناه ، [٤٦] ممّا قال وأخبر)) ، ومعناه ، الكف عن معاصي الله سبحانه ، والحرص على طاعته تعالى [٤٧]وأدّت (الهمزة) ، وظيفة حمل المخاطب على أن يقرَّ بأمرٍ يعرفه ، و((إلزام المخاطب بالحجة ، وانتزاع الاعتراف منه بما يريده المتكلم)) [٤٨].

ومنه كذلك ، قوله : ((وجميع الممتحنين المأمورين من العقلاء البالغين كلّهم لهم عقول يميّزون بها أمور الدنيا كلّها ، الجليل ، والدقيق ، وأكثرهم للآخرة لا يعقلون ، ألم تسمعه عزَّ وجلّ يقول : ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[٤٩]) ، تفسير المحاسبي ، إشارة فيه ، إلى الانقياد والإذعان لله عزَّ وجلّ ، وردت الهمزة ، مع نفي الفعل المضارع ، ((والمراد حصول ضدّه المخاطب على الاهتمام بتحصيله))[٥٠] ، أداة النفي (لم) ، أدّت في الصيغتين السابقتين ، مجرد تأكيد معنى الإثبات ، وقد وردت هذه الصيغة كذلك في كتبه .[٥١]

بحث واستعمل المحاسبي أيضاً ، الأداة (ليس) ، والتي تفيد نفي الحال والاستقبال ، وهي مثل (لم) ، في إفادتها التقرير ، إذا سُبقت بالهمزة ، في قوله[٥٢] : ((فإنْ قلتَ : إني نسيتُ النيِّة ، وسهوت عنها ، فهذا إقرار ، وليس لك حجة ، وإنما أنساك النيِّة الدنيا ، وإرادتك الغالبة لها .[٥٣] أوَليس بلية آدم كانت من النسيان وقلة العزم ؟ أوَلا تسمع إلى قول الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾[٥٤] ، ظهر في تفسيره ، (الهمزة) ، مرتين ، أفادت التقرير ، الأولى والتوكيد في الثانية ، وتكرار الهمزة دلالة على التألّم والبث والشكوى ، ((تكرار وسيلة أسلوبية إمّا للتأكيد ، وإمّا للتذكير وهو إمّا أن يكون بتكرار اللفظ كما هو ، أو مع تعديل في المطلع طفيف ، أو يكون إشارة إلى المطلع ، أو وصفاً له)) .[٥٥]

سادساً / النّفي :

واستعمل المحاسبي الاستفهام ؛ لتأدية معنى النفي ، ممّا ظهر ، في تفسيره ، بقوله : ((ولهم جَعلَ المخرج من كل ما ضاق على العباد ، ولهم ضمن الرزق من غير الوجوه التي فقال تبارك وتعالى : ﴿* وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[٥٦] ترى فيها موضعاً لغير متق ؟ !)) ، فالمعنى المراد ، لا ترى فيها موضعاً إلاّ لمتقٍ .[٥٧] فهل يحتسبونها ، ومنه أيضاً ، قوله : ((فمن نجا من النار فما له منزلة غير الجنة ، ألم تسمع إلى قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾[٥٨]

فهل ترى لأحدٍ منزلة بينهما ؟ ومَن أراد الدخول في عزّ المحبّة فعليه بمفارقة الأحباب والخلوة بربّ الأرباب)) [٥٩] ، أي لا ترى لأحدٍ منزلة إلاّ فيهما ، وقد ظهر السجع الموازي استعماله الألفاظ (الأحباب ، والأرباب) [٦٠] ، فضلاً عن ، تكرار تركيب الشرط الذي شكّل لاقة بين الألفاظ ومعانيها وبين الأصوات ودلالاتها [٦١].

سابعاً / التعجّب :

واستعمل المحاسبي الاستفهام في معنى التعجّب ، نحو قوله : ((قال الله عزَّ وجلّ :﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۙ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ۚ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [٦٢]

. فذمَّهم الله تعالى بترك رعاية ما لم يَفترِض ، ولم يوجب عليهم !! فكيف بمن ضيَّع رعاية حقوقهِ الواجبةِ ، التي أوجب في تضييعها غضبه وعقابه ، ...)) ، التعجّب هنا ممّن غفل عن القيام بجميع أوامره ونهيه سبحانه ، ونلحظ أيضاً ، جناس الاشتقاق ، في قوله(يوجب والواجبة ، وأوجب) [٦٣] ، ترجع لمادة واحدة في الاشتقاق ، ممّا حقّق تناغماً في الأصوات وتغايراً في الدلالة ، ويظهر جمال الإيقاع ورشاقة الصِّياغة . [٦٤]

ومنه كذلك ، ((... وقوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [٦٥] والمشورة من الحاجة لا من الغنى . أمر الله نبيَّه (ﷺ) أن يستعين بمن ليس هو مثله ، وأن تبقى سُنَّته سُنَّةً لمن هو بعده . فكيف بمن هو مثلي ومثلك إذا سها عن الله فيما لا يسعه إلاَّ التضرع إليه ؟)) ، يتعجّب المحاسبي من إدراك نفسه لما له وما عليه وإحاطته به ، كيف يتولى عنه لغفلته ، وتضمَّن النص تكرار الاسم الموصول (مَن) ما أعطى الانسجام والتناسق الصوتي ، فـ ((إذا تكرر الحرف في الكلام على أبعاد متقاربة أكسب تكرار صوته ذلك الكلام إيقاعاً مبهجاً)) . [٦٦]

ثامناً / النّفي مع التعجّب :

وعبَّر المحاسبي بالاستفهام ، عن تأدية معنى النفي مع التعجّب ، ممّا ظهر ، في تفسيره ،قائلاً : ((ألا من لم يقنع بما يكفيه ، كيف يأمن أن يكون ممَّن قال الله فيه يقنع أن يحلّ به هذا الوعيد من الله فيهلك ؟ أعاذنا الله وإياكم من حب الشيطان ، وأنعم علينا ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ [٦٧] ؟ وكيف يؤمن مَن لا وعليكم بالقناعة والتواضع)) [٦٨]، أي ، (لا يأمن ..) ، والتعجّب ممَّن لا يقنع بما رزقه الله تعالى ، وظهر في النص أيضاً ، الجناس المضارع ، في يأمن ، ويؤمن) ، واستعاذ المحاسبي ، بصيغة الجمع ، (أعاذنا الله وإياكم من حب الشيطان) ، وفيها طلب ودعاء للآخرين . [٦٩]

تاسعاً / الإنكار التوبيخي :

(٧٠)

وجمع المحاسبي ، المعنيين السابقين ، مع استفهام الإنكار التوبيخي ، مستعملاً الأداة نفسها ، في تفسيره ، بقوله : ((... فكيف تعني بعد علمك بطلب ما قد فرغ من مقداره ؟ أولا تسمع إلى قول الله عزَّ وجلّ : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٧﴾ [٧١]، فكيف تطلب كشف الضّر من عند غير الله ، أو تطلب النفع من عند غير الله ؟ فكيف تطلب كشف الضّر وطلب النفع من عند غير الله ؟ وكيف لا يكون الغالب على قلبك طلب كشف الضّر ، وطلب النفع من عنده وحده ...؟ وكيف تخاف فوات شيء من الخير يريده الله بك ؟ وإن لم يرده بك فمَن يعطيك ذلك ؟ أو ينيلك إيّاه ؟)) [٧٢] ، نلحظ في النص الإبداع ؛ إذ اشتمل على الطباق بين اسمين ، في الضّر ، والنفع) ، وظهر التكرار كذلك ، في (طلب كشف الضّر) [٧٣] و(طلب النفع ، و (من عند غير الله) ، والموازنة في ، (يعطيك ، وينيلك) ، والمجاز المرسل في لفظه بيد الله) ، واستُعمِلت هنا بمعنى (الإرادة) وقد نقلت من معناها الأول[٧٤] ، الذي وضعت له ، وهو (اليد الجارحة) ، لتدل على المعنى الجديد ، والعلاقة بين المعنيين (سببية وظهر أيضاً ، اسم الاستفهام (مَن) ، فضلاً عن ، تكرار الأداة (كيف) ، خمس مرات ؛ لأداء معانٍ مختلفة ، فالأولى دلّت على التعجّب ، وفي الثانية والثالثة أفادت النفي والرابعة أفادت

التعجّب أيضاً ، والأخيرة أدَّت معنى الإنكار والتوبيخ ، وهذا التكرار بالاستفهام يمثّل إحدى الوسائل [٧٥]التعبيرية المميّزة عند المحاسبي ، في إظهار العظة مؤثّرة ، وتضمَّن النص أيضاً ، دلالات صوفية خاصة . [٧٦]

عاشراً / الاحتقار :

وأنكر المحاسبي بهمزة الاستفهام عدم قطع كلامه الموافقة لله عزَّ وجلّ ، في تفسيره موبخاً نفسه على حقيقة كونه من نطفة ، بقوله : ((أما تتفكرين أنه مماذا خلقك ؟ من نطفةٍ خلقك [٧٧]فقدّرك ، ثم السبيل يسّرك ، ثم أماتك فأقبرك ، أفتكذبينه في قوله : ، فإن لم تكوني مكذّبة ، فما لكِ لا تأخذين حذرك ؟)) ، جاءت لفظة (ماذا الاستفهامية ، المدغمة بحرف الجر (مِن) ، في معنى الاحتقار ، وأفادت (ما) الثانية معنى الحث وعدم الغفلة ، وتضمَّن النص اقتباساً تاماً ، من القرآن الكريم ، مع بعض التغيير فيه ، دلالة على تعمّق المحاسبي وفهمه للقرآن الكريم . [٧٨]

الحادي عشر / التهويل :

واستعمل المحاسبي الاستفهام ، في تصوير موقف المخالفين لأوامره ونهيه سبحانه يوم القيامة ، ممّا نقرؤه ، في تفسيره ، بقوله : ((... ، واشكروه على ما أنعم به من الأقدام بالسعي إلى الطاعات . فإن قصرتم في ذلك ، فراقبوا ألا تسعوا على الأقدام في الآثام كفعل من أرى .

فإنَّ الله جلَّ ثناؤه يقول : ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [٧٩] . فكيف والأكبال في الأقدام ، والأغلال في الأعناق ؟)) ، (كيف) الاستفهامية هنا بمعنى التهويل وظهر التوازي في فقرات الكلام ، ممّا أعطى الانسجام والنغمة المؤثّرة للنص فانتظام الفواصل بين الألفاظ يولّد النبرات الإيقاعية . [٨٠]

ومنه ، نقرأ تفسيراً لآية كريمة للمحاسبي ، استعمل فيه الأداة (هل) ، و (مِن) الزائدة والتي تفيد توكيداً لعموم ما بعدها ، بقوله : ((... ، ونادى الله عزَّ وجلّ النار وأنت مكبوب على وجهك تنادي بالويل والثبور ، فناداها : ؟ فسمعت نداءه وسمعت إجابتها له : ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [٨١]؟ يقول هل من سعةٍ وأنت في قعرها ، وهي تتلهب في بدنك ، لها قصيف في جسدك ، ...)) [٨٢] ، أراد المحاسبي ، تصوير حال المذنبين وحرقهم بالنار يوم القيامة ، وهو دعوة منه أيضاً ، إلى التفكير والاعتبار ، وما ذكر لا يليق أن يَمرَّ به المرء مرَّ الكرام . [٨٣]

الثاني عشر / التشويق :

وعبَّر المحاسبي ، بالأداة (أين) ؛ لأداء معنى التشويق ، ممّا نقرؤه ، في قوله : ((... فأين أنت في عاقبة ذلك العمل الذي استقبلته ؟ وأنت تلتثمهن وتشم عوارضهن : ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ ثم أثنين عليك وأثنيت عليهن ،...)) ، أمنية المحاسبي مختصة بالمستقبل ، في تصوير دخول الجنة والالتقاء بالحور ، دعوةً منه ، للقيام بالطاعات لله سبحانه ، في تحقيق ذلك الأمر . [٨٤]

ومنه كذلك ، تفسيره لآيةٍ كريمةٍ ، استعمل فيه أداة العرض (أما) ، مع اسم الاستفهام (مَن) ، بقوله : ((فبينما أنتَ معها في غاية السرور والحبور إذ أتى النداء ... من بعض ما أعدَّ الله من أزواجك : يا ولي الله أما لنا منك دولة ؟ أما آن لك أن تنظر إلينا ؟ ... فأجبتها : ومَن أنتِ باركَ الله فيك ؟ فردّت الجواب إليك : أنا من اللوات[٨٥]ي قال الله عزَّ وجلّ : ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [٨٦]، فبينما أنتما قد ملئتما فرحاً وسروراً ، إذ نادتك أخرى من قصر من قصورك :

أما لنا منك دولة ؟ أما آن لك أن تشتاق إلينا ؟ فأجبتها : ومن أنت بارك الله فيك ؟ فرجعت القول : أنا من اللواتي قال الله عزَّ وجلّ إليك : ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [٨٧]

، فتحوّلتَ إليها ...)) ، خيال المحاسبي ، أتاح له بتشكيل حوار في الجنة مع الحور ، وهذا الخيال عنصر لازم في الإبداع الفني ، وأفاد تكرار جملة (أما لنا...؟) ، و(أما آن لك ...؟

) ، و(مَن أنتِ ...؟) ، و (أنا من اللواتي ...؟) ، توكيد المعنى في النفس ، فـ ((تكرار الكلمة في الجملة أو النص ، وتكرار الجملة في السِّياق ، لابد أن يكون له من القيمة ما هو أكبر)) (٨٨)

الخاتمة

انتهى البحث في (الاستفهام عند الحارث المحاسبي في تفسيره للقرآن الكريم) ، ولابدّ لنا من أن نشير إلى أهم النتائج التي توصَّل إليها البحث ، وهي :

١. همزة الاستفهام أكثر الأدوات وروداً عند المحاسبي في تفسيره للقرآن الكريم ، وأكثرها تنوّعاً في الاستعمال ، فقد دخلت على الفعل الماضي ، والمضارع بصيغهما المختلفة بهدف تحقيق أفضل توعية بها .

٢. انمازت (هل) الاستفهامية ، بالاجتماع مع الأداة (غير) ، لإفادة الحصر والتخصيص

٣. حقّق المحاسبي بالظواهر الصوتية (التكرار ، والجناس ، والسجع ، والتوازي) ، مجموعة من الوظائف الإيقاعية ، مثل التلحين والتنغيم ممّا عمَّق المعاني .

٤ـ تكرار الأداة (كيف) ، بمعانٍ عديدة ، وفَّر للمحاسبي ، حرية أسلوبية في تجسيد معاناته وتجاربه الشعورية ، وأعطى فقرات الكلام وحدة إيقاعية رقيقة ، الهدف منها هو لفت انتباه السامعين أو القارئين .

٥. استعمل المحاسبي الخيال والتصوير ، وسيلة للترغيب والترهيب ، فمن خلال هذه العملية يتم الإصلاح ، تأثّراً منه بالقرآن الكريم .

إنَّ هذه هي أهم النتائج التي استطاع البحث أن يصل إليها ، فإن أصبت فذاك أملي ، وإن فاتني شيء فحسبي أجر المجتهدين .

والحمد لله أوّلاً وآخراً على فضله ونعمه وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم .

الهوامش

(١) ينظر : مقاييس اللغة ، ابن فارس ، مادة (فَهِمَ) ، ٧٢٢ .

(٢) تهذيب اللغة ، أبو منصور الأزهري ، مادة (فَهِمَ) ، ٦/ ٣٣٥ .

(٣) م . ن ، مادة (فَهِمَ) ، مج ٥ ، ٣٩ / ٣٤٨١ .

(٤) الفروق اللغوية ، أبو هلال العسكري ، ٣٩ و٤٨ .

(٥) ينظر : المنجد في اللغة ، لويس معلوف ، مادة (فَهِمَ) ، ٥٩٨ .

(٦) لسان العرب ، ابن منظور ، مادة (فَهِمَ) ، مج ٥ ، ٣٩ /٣٤٨١ .

(٧) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، الدكتور أحمد مطلوب ، ١٠٩ .

(٨) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، ١٣١/١، وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، السّبكي ، ١ / ٤٢٣ .

(٩) المريد : هو السالك في الطريق إلى الله تعالى ، بصدق الإرادة والإقبال الخالص لطاعته ، وهجر مطالب النفس وحظوظها وشهوتها ، والمتجه بكليته ، وبكامل إرادته لله سبحانه وتعالى . ينظر : معجم ألفاظ الصوفية ، الدكتور حسن الشرقاوي، ٢٦٢ .

(١٠) تنظر ترجمته في : طبقات الصوفية ، أبو عبد الرحمن السُّلمي ، ٥٦ . ٦٠ ، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، أبو نعيم الأصفهاني ، ١٠ / ٧٣ . ١١٠ ، وصفة الصفوة ، ابن الجوزي ، ٢ / ٦٢٢ . ٦٢٣ .

(١١) الأحقاف ، ٢٠ .

(١٢) الوصايا ، الحارث المحاسبي ، ١٠١ .

(١٣) المراقبة : علم العبد باطلاع الرّب سبحانه وتعالى عليه واستدامته لهذا العلم مراقبة ربّه . ينظر : الرسالة القشيرية ، عبد الكريم بن هوازن القشيري ، ١٨٩ .

(١٤) الوصايا ، ١١٩ و ١٣٦ .

(١٥) البرهان في علوم القرآن ، الزركشي ، ٢ / ٣٤٢ ، وينظر : معترك الأقران في إعجاز القرآن ، السيوطي ، ١ / ٤٣٦ .

(١٦) التنبيه : إعلام ما في ضمير المتكلم للمخاطب . ينظر : التعريفات ، الشريف الجرجاني ، ٥٤ .

(١٧) الذاريات : ٢٢ . ٢٣ .

(١٨) ينظر : تفسير التحرير والتنوير ، ابن عاشور ، ٢٥ / ٧١ .

(١٩) آداب النفوس ويليه التوهم ، الحارث المحاسبي ، ١٤٤ .

(٢٠) فصِّلت ، ١٧ .

(٢١) ينظر : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، ابن الاثير ، ٢ / ١٧١ .

(٢٢) فصِّلت ، ١٧ .

(٢٣) هود ، ٢٠ .

(٢٤) الأعراف ، ١٩٨ .

(٢٥) العقل وفهم القرآن ، ٣٢٤ .

(٢٦) ينظر : اللّمع في التصوف ، أبو نصر السَّرَّاج الطوسي ، ٣٠٣ .

(٢٧) ينظر : آداب النفوس ويليه التوهم ، ١٢٨ و ١٤٥ .

(٢٨) ينظر : مفتاح العلوم ، السّكاكي ، ٤١٨ ، ومن بلاغة النظم العربي . دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، الدكتور عبد العزيز عبد المعطي عرفة ، ٢ / ١٣٣ .

(٢٩) يونس ، ٦١ .

(٣٠) بدء من أناب إلى الله ، الحارث المحاسبي ، ١٥٧ ، وينظر : آداب النفوس ويليه التوهم ، ١٢٤.

(٣١) البقرة ، ٢٦٨ .

(٣٢) بدء من أناب إلى الله ، ١٨٠ ، وينظر : آداب النفوس ويليه التوهم ، ١٤٣ .

(٣٣) الموازنة : تساوي الفاصلتين في الوزن دون التقفية . ينظر : التلخيص في علوم البلاغة الخطيب القزويني ، ٤٠٤ ، وينظر : عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح ، ٢ / ٣٠٣

(٣٤) الطباق : هو الجمع في الكلام بين الشيء الواحد وضده . ينظر : علوم البلاغة العربية ، الدكتور محمد ربيع ، ١٦١ .

(٣٥) ينظر : أساليب البيان ، الأستاذ الدكتور فضل حسن عباس ، ٣٦٣ .

(٣٦) ينظر : حروف المعاني والصفات ، الزجّاج ، ١١ ، ورصف المباني في شرح حروف المعاني ، المالقي ، ١٨١ .

(٣٧) فاطر ، ٣ .

(٣٨) الأعراف ، ٥٤ .

(٣٩) آداب النفوس ويليه التوهم ، ١٤١ .

(٤٠) ينظر : في التركيب اللغوي للشعر العراقي المعاصر . دراسة لغوية في شعر السيّاب ونازك الملائكة ، مالك يوسف المطلّبي ، ١٥٦ .

(٤١) ينظر : م . ن ، ١٤٤ ، والوصايا ، ١٠٣ و٢٢٤ ، وبدء من أناب إلى الله ، ١٧٧ و ١٨٣ ، وحلية الأولياء ، ١٠ / ١٠٦ .

(٤٢) ينظر : حروف المعاني والصفات ، ٨ .

(٤٣) ينظر : الخصائص ، ابن جنّي ، ٢ / ٤٣٨ .

(٤٤) التقرير : وهو حمل المخاطب على الإقرار و الاعتراف بأمر قد استقرَّ عنده . ينظر : معترك الأقران في إعجاز القرآن ، ١ / ٤٣٣ . ٤٣٤ .

(٤٥) الحاقة ، ١٢ .

(٤٦) العقل وفهم القرآن ، ٢١١ .

(٤٧) ينظر : شرح الرضي على الكافية ، الاستراباذي ، ٤ / ٤٤٧ .

(٤٨) أساليب البيان ، ٨٥ .

(٤٩) الأعراف ، ١٩٨ .

(٥٠) العقل وفهم القرآن ، ٢١٧ .

(٥١) تفسير التحرير والتنوير ، ١٦ / ١٦٥ .

(٥٢) ينظر : م . ن ، ٣٠ / ١٣ .

(٥٣) ينظر : العقل وفهم القرآن ، ٣٠٦ و ٣١٧ و ٣٣٩ ، والوصايا ، ٢٧٠ ، وحلية الأولياء ، ١٠ / ٧٧ ، والرعاية لحقوق الله ، الحارث المحاسبي ، ٣١٨ .

(٥٤) طه ، ١١٥ .

(٥٥) ظاهرة الربط في التركيب والأسلوب العربي ، (بحث) الدكتور تمّام حسّان ، ٣١ .

(٥٦) آل عمران ، ١٣٣ .

(٥٧) الرعاية لحقوق الله ، ٣٨ .

(٥٨) الشورى ، ٧ .

(٥٩) المحبة : ميلك إلى الشيء بكليتك ، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سراً وجهراً ، ثم علمك بتقصيرك في حبّه ، ينظر : الرسالة القشيرية ، ٣٢٤ .

(٦٠) حلية الأولياء ، ١٠ / ٨٢ .

(٦١) السجع الموازي : وهو أن تتفق اللفظة الأخيرة من القرينة مع نظيرتها في الوزن والرَّويَّ . ينظر : خزانة الأدب وغاية الأرب ، ابن حجة الحموي ، ٢ / ٨٤٨ .

(٦٢) الحديد ، ٢٧ .

(٦٣) الرعاية لحقوق الله ، ٣٨ .

(٦٤) جناس الاشتقاق : وهو أن يجمع بين اللفظين الاشتقاق . ينظر : معجم المصطلحات البلاغية و تطورها ، ٢٦٩ .

(٦٥) آل عمران ، ١٥٩ .

(٦٦) آداب النفوس ويليه التوهم ، ١٢٨ .

(٦٧) التكاثر ، ١ .

(٦٨) الوصايا ، ٩٧ .

(٦٩) الجناس المضارع : وهو أن يجمع بين كلمتين هما متجانستان لا تفاوت بينهما إلا بحرف واحد سواء وقع أولاً أو آخراً أو وسطاً أو حشواً . ينظر : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها ، ٢٨٥ .

(٧٠) الإنكار التوبيخي : هو التعبير والتقريع على أمر قد وقع في الماضي ، أو على أمر يخاف المرء أن يقع في المستقبل بأن كان المخاطب بصدد أن يفعله . ينظر : من بلاغة النظم العربي ـ دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني ، ٢ / ١١٥ ـ ١١٦ .

(٧١) الأنعام ، ١٧ .

(٧٢) بدء من أناب إلى الله ، ١٧٩ ، وينظر : آداب النفوس ويليه التوهم ، ١٤٢ . ١٤٣

(٧٣) الإبداع : وهو أن يكون الكلام مشتملاً على عدّة أنواع من البديع . ينظر : جواهر البلاغة ، أحمد الهاشمي ، ٤١٤ .

(٧٤) المجاز المرسل : هو كلُّ كلمة أريد بهاغير ما وُضعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول . ينظر : أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجاني ، ٣٠٤ .

(٧٥) ينظر : النثر الصوفي . دراسة فنية تحليلية ، الدكتور فائز طه عمر ، ٢٧٥ .

(٧٦) معاتبة النفس ، الحارث بن أسد المحاسبي ، ٧٣ .

(٧٧) عبس ، ٢٢ .

(٧٨) ينظر : أستاذ السائرين . الحارث بن أسد المحاسبي ، الدكتور عبد الحليم محمود ، ١٣٥ .

(٧٩) النور ، ٢٤ .

(٨٠) الوصايا ، ١٦٤ .

(٨١) ق ، ٣٠ .

(٨٢) ق ، ٣٠ .

(٨٣) ينظر : علم المعاني ، ٦٣ .

(٨٤) الصافات ، ٦١ .

(٨٥) الولي : هو مَن توالت طاعاته من غير تخلل معصية . ينظر : الرسالة القشيرية ، ٣٥٩

(٨٦) السّجدة ، ١٧ .

(٨٧) ق . ٣٥ .

(٨٨) ينظر : التفسير النفسي للأدب ، الدكتور عز الدين إسماعيل ، ٣٦ .